





ابن عامر الدمشقي شيخ قراء بلاد الشام

د. ناديا محمد زهير الغزولي(1)

(1)- دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام من طرابلس لبنان جامعة الجنان، مديرة المركز الوطني لتطوير المناهج التربوية ووزارة التربية في الجمهورية العربية السورية.

ملخص البحث

يتناول هذا البحث أحد القراء السبعة المشهورين، وهو الإمام التابعي عبد الله بن عامر الدمشقي، إمام أهل الشام في القراءة، وقاضي دمشق، ويُرَكِّزُ البحث على التعريف بهذا الإمام، وأثره في علم القراءات، وبيان أسباب استمرار قراءته، وجعلها ضمن القراءات السبع المشهورة لأداء النص القرآني. قُسم البحث إلى ثلاثة محاور، الأول عن عصر ابن عامر، والثاني عن سيرته، أما المحور الثالث فخصَّص للحديث عن قراءته التي اختص بها.

_ مقدمة:

بلغ النبي ﷺ القرآن الكريم بأمانة، وقام بعده أصحابه فجمعوا القرآن في صحف ومصاحف، لتستمر بعدهم قافلة الحفاظ في السير، يأخذ فيها خير خلف عن خير سلف، تحقيقاً لقول الله عز وجل: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(١)، فوجد في عصر التابعين ومن بعدهم علماء سخروا أنفسهم لتعلم كتاب الله وتعليمه، فكان منهم أئمة ذاع صيتهم وعمَّ فضلهم، ورحل إليهم القاصي والداني، وأخذ عنهم الرواة، ثم اشتغل أهل العلم بعدهم بتحصيل قراءتهم وتخليد آثارهم، هؤلاء هم القراء السبعة^(٢) ومنهم ابن عامر الدمشقي، إمام القراء في دمشق الشام في القرن الأول الهجري.

المحور الأول _ عصر ابن عامر:

عاش ابن عامر بين عامي (٨-١١٨ هـ)^(٣) أي في القرن الأول الهجري، في مدينة دمشق، عاصمة الدولة العربية في العصر الأموي، التي كانت مركزاً حضارياً كبيراً، فهي ملتقى الصحابة والتابعين وموطن العلماء، وقد تميز هذا العصر بأنه عصر الفتوحات ومجمع الحضارات، عصر الانفتاح والتمازج الفكري وتنظيم العلوم، عصر الازدهار التجاري والصناعي، عصر الرفاهية الاجتماعية.

أولاً _ الجانب السياسي:

تزامن عصر ابن عامر مع بدايات الدولة العربية في العصر الراشدي والعصر الأموي، حيث نشأت دولة مترامية الأطراف، تفاعلت فيها عناصر متعددة، وشهدت تطورات سياسية، تخللتها أحداث هزت المجتمع العربي والإسلامي.

وحيثما نُعرج على دراسة الأوضاع السياسية للقرن الأول الهجري فإننا لن نستطيع تجاهل الأحداث الجسام التي تعرّضت لها الدولة العربية في تلك المرحلة، كمقتل الخلفاء الثلاثة: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب عليه السلام، إضافة إلى حادثة كربلاء^(٤)، لكن في المقابل تميز هذا العصر، ولا سيما في المراحل اللاحقة، باستقرار سياسي داخلي وخارجي منذ عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي استعاد وحدة الدولة، وأجرى إصلاحات مهمة في النواحي الإدارية، كتعريب الدواوين والنقد، يُضاف إلى ذلك اهتمام الخلفاء والولاة بدعم العلم وتشجيع العلماء، وهذا كان له

(2)- سورة الحجر، آية 9.

(3)- القراء السبعة: جمع ابن وهبان في كتابه «أحسن الأخبار» أخبار هؤلاء الأئمة، وجمع أسماءهم في أبيات شعر، فقال:

لَقَدْ نَقَلَ الْقُرْآنَ لِلنَّاسِ سَبْعَةً وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا إِمَامٌ وَعَالِمٌ

فَنَجَلْ كَثِيرٌ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَحَمْرَةُ زَبَّانُ الْكِسَائِيُّ عَاصِمٌ

أحسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص 172.

(4)- أحسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص 251. دور القرآن الكريم في دمشق: النعيمي (عبد القادر)، ص 83.

(5)- تاريخ الدولة الأموية: طقوش (محمد سهيل)، ص 7.



تأثير في تطوّر الحركة العلميّة، وبهذا ساهمت الدولة العربيّة الأموية في دفع عجلة العلم، ووضع الأسس العمليّة للتعليم، التي استمرت قرونًا طويلة^(١).

ثانياً _ الجانب الاجتماعي؛

من تتبع أحوال ذلك العصر يتضح جلياً حالة الاستقرار والرفاهية التي كان يعيشها المجتمع بشكل عام، ولأن دمشق هي العاصمة فقد اعتنى بها الخلفاء عناية تامة، وقصدها الناس من كل مكان، فهي واجهة الحضارة في ذلك العصر، وقد عبّرت الدولة العربيّة عن استقلالها الاقتصادي بعد تعريب النقد، وعبّرت عن استقلالها الفكريّ بعد تعريب الدواوين، وانعكس هذا الازدهار الاقتصادي والفكريّ على الحياة الاجتماعيّة^(٢).

ثالثاً _ الجانب العلمي؛

امتاز القرن الأوّل الهجريّ بنهضة فكريّة وثقافية نشطة، حيث اهتم العلماء بالعلوم كافة، وأصبحت مدينة دمشق مركز هذه النهضة العلميّة، فقصدها العلماء والطلاب من كل الأنحاء، واستوطنوها، وكان جلهم من الصحابة أو التابعين، وكان من علمائها في ذلك العصر ابن عامر. ومما لا شك فيه أن طالب العلم يتأثر بعلماء عصره، ويتخلق بأخلاقهم، فكيف إذا كانوا من كبار الصحابة أو التابعين، الذين تركوا أثراً عميقاً حدّد سمات هذا القرن، حتى ارتبطت بأسمائهم. وفي هذا العصر اتجه العلوم إلى التنظيم والتبويب والجمع والترتيب، فظهرت شخصيات علمية عملت على وضع أسس العلوم المختلفة، كما بدأ الاحتكاك المباشر والتمازج مع الحضارات السابقة من فارسية ورومية وهندية وغيرها.

سارت الحياة العلميّة في بلاد الشام عامّةً ودمشق خاصةً في عدة اتجاهات، منها الدينيّ، الذي تجلّى في الاهتمام بالتفسير والقراءات، وعلوم الحديث، والفقه، والمغازي والسير، وأسهم العلماء، وجلهم من الصحابة والتابعين، في تعليم الناس، وضمان إيصال العلم إلى جيل التابعين ومَن جاء بعدهم. وكان لدمشق قصب السبق في إنشاء المدارس المتخصصة بالعلوم، فسبقت مدن العالم الإسلاميّ عدداً ونوعاً، وتعدّ المساجد أحد المؤسسات التعليميّة التي أدت دوراً مهماً في المجال العلمي، فقد كانت معاهد كبيرة لدراسة القرآن الكريم والحديث والفقه، وكان الجامع الأموي على رأس هذه المدارس^(٣).

المحور الثاني _ سيرة ابن عامر؛

أولاً _ نسبه ومولده؛

هو عبد الله بن عامر بن يزيد بن ربيعة اليحصبيّ الدمشقيّ (٨-١١٨ هـ/ ٦٣٠-٧٣٦ م)^(٤)، ويعود نسبه إلى فخذ من قبيلة حمير، فهو من صرحاء العرب^(٥)، وفي ذلك يقول الإمام الشاطبيّ:
أبو عمرهم واليحصبيّ ابن عامرٍ صريحٌ وباقيهم أحاط به الوُلا^(٦)

(6)- التعليم في الشام في العصر الأموي: الوافي (سمية)، ص54.

(7)- الدولة الأموية: العث (يوسف)، ص245.

(8)- الدولة الأموية: العث (يوسف)، ص244.

(9)- تهذيب التهذيب: العسقلاني (أحمد بن حجر)، ج3/ص179. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد، ج1/ص156. أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص249.

(10)- يَحْضَبُ هو: ابن دهمان بن مالك بن سعد، وينتهي نسبه إلى حمير. بينما جعلها البعض قرية من قرى حمص، نزلتها قبيلة حمير. الأنساب: السمعاني (عبد الكريم)، ج5/ص682. أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص250، هامش 3.

(11)- حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع: الشاطبي (القاسم بن فيره)، البيت 43، ص4.

يكنى ابن عامر أبا عمران^(١٢)، وكانت ولادته في البلقاء في قرية رحاب^(١٣)، ثم انتقل إلى دمشق بعد فتحها، روى قاضي البلقاء خالد بن يزيد عن عبد الله بن عامر اليحصبي قوله: «وُلدت سنة ثمان من الهجرة في الحياينة^(١٤)، ضيعة يُقال لها رحاب، وقُبض رسول ﷺ ولي سنتان، وذلك قبل فتح دمشق، وانتقلت إلى دمشق بعد فتحها، ولي تسع سنين»^(١٥).

وكانت بداية طلب ابن عامر للعلم في دمشق، فاختص في علوم القرآن حتى برع فيها، واشتهر ذلك عنه، وكان ابن عامر مقدماً في زمانه، مشهوراً بجهوده العلمية، معروفاً بالإتقان، كثير محاربة الخرافات، أما عن أسرته فقد ذكرت كتب التراجم إخوته فقط، وهما عبيد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن عامر^(١٦).

ثانياً - شيوخه:

وُلد ابن عامر في حياة النبي ﷺ، ولقي من الصحابة جمًّا غفيراً، لذلك اختلف العلماء في طبقتهم^(١٧) وفق الاختلاف في تقسيم الطبقات وتصنيفها، فابن وهبان جعل ابن عامر من الطبقة الأولى، وذلك وفقاً للاعتبار الأول وهو ولادته في حياة النبي ﷺ، لكنه صحَّح ذلك بقوله «الأصح أن ابن عامر من الطبقة الثانية»، أي من طبقة التابعين، ولكي يميز ابن وهبان ابن عامر عن غيره من التابعين، الذين لقوا صحابياً أو اثنين، قال: «من الطبقة الثانية من نبلاء التابعين»^(١٨) وفضلائهم وأجل الرواة^(١٩).
قرأ ابن عامر القرآن على معاذ بن جبل^(٢٠)، وفضالة بن عبيد^(٢١)، ووائلة بن الأسقع، ومعاوية بن أبي سفيان^(٢٢)، والمغيرة بن أبي شهاب المخزومي^(٢٣) وقرأ على عثمان بن عفان^(٢٤)، والنعمان بن بشر، وأبي أمامة، وأبي إدريس الخولاني، وقيس بن الحارث الغامدي المذحجي.

أخذ ابن عامر القراءة عرضاً على الصحابي الجليل أبي الدرداء^(٢٥)، الذي كان عالم أهل

(12)- الأعلام: الزركلي، ج4/ص95.

(13)- رحاب: قرية من قرى حوران. معجم البلدان: الحموي (ياقوت)، ج3/ص30.

(14)- الحياينة: قرية في السواد من أرض دمشق. معجم البلدان: الحموي (ياقوت)، ج2/ص327.

(15)- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: الذهبي (محمد)، ج1/ص186. غاية النهاية في طبقات القراء: الجزري، ترجمة رقم 1790، ج1/ص381.

(16)- تهذيب التهذيب: العسقلاني (أحمد بن حجر)، ج6/ص203.

(17)- مفهوم الطبقة في علم القراءات: الاعتناء بالطبقات عند القراء قديم، ولأهميته سمي العلماء مؤلفاتهم في تراجم القراء بالطبقات، لكن استعمال الكتاب لمبدأ الطبقة لم يكن واضح المعالم، فالبعض يجعل الطبقة عشرين سنة أو أربعين سنة، ومنهم من جعل الصحابة اثنتي عشرة طبقة، والتابعين خمس عشرة طبقة، بينما جعل بعض الكتاب الصحابة كلهم في طبقة واحدة، والتابعين في طبقة ثانية، ومنهم من رتب الطبقات وفق حروف الهجاء أو وفق فضل البلد. أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص61-65.

(18)- أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص257. الطبقات الكبرى: ابن سعد، ص447-449.

(19)- الإمام ابن عامر الشامي وروايه هشام وابن ذكوان: البغدادي (أحمد)، تهديد.

(20)- معاذ بن جبل بن أوس الأنصاري الخزرجي، من أعيان الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها، إليه المنتهى في العلم بالأحكام والقرآن، مات في الشام سنة ثمان عشرة. تقريب التهذيب: العسقلاني (أحمد بن حجر) ترجمة رقم 6725، ص597.

(21)- فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس الأنصاري الأوسي، نزل دمشق، وولي قضاءها، وتوفي سنة ثمان وخمسين، تقريب التهذيب: العسقلاني (أحمد بن حجر) ترجمة رقم 5396، ص494.

(22)- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: الذهبي، ج4/ص308.

(23)- المغيرة بن أبي شهاب المخزومي: ذكره الذهبي في معرفة القراء في الطبقة الثانية، قرأ القرآن على عثمان بن عفان ﷺ، وعليه قرأ عبد الله بن عامر اليحصبي. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: الذهبي (محمد)، ترجمة رقم 11، ج1/ص136.

(24)- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: الذهبي، ج4/ص308. تهذيب التهذيب: العسقلاني (أحمد بن حجر)، ج3/ص179.

(25)- أبو الدرداء: عويمر بن زيد، صحابي جليل، قدم مدينة دمشق معلماً لأهلها الفقه والقرآن والسنة. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: الذهبي (محمد)، ترجمة رقم 7، ج1/ص124. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر، ترجمة رقم 1646، ج4/ص2940.



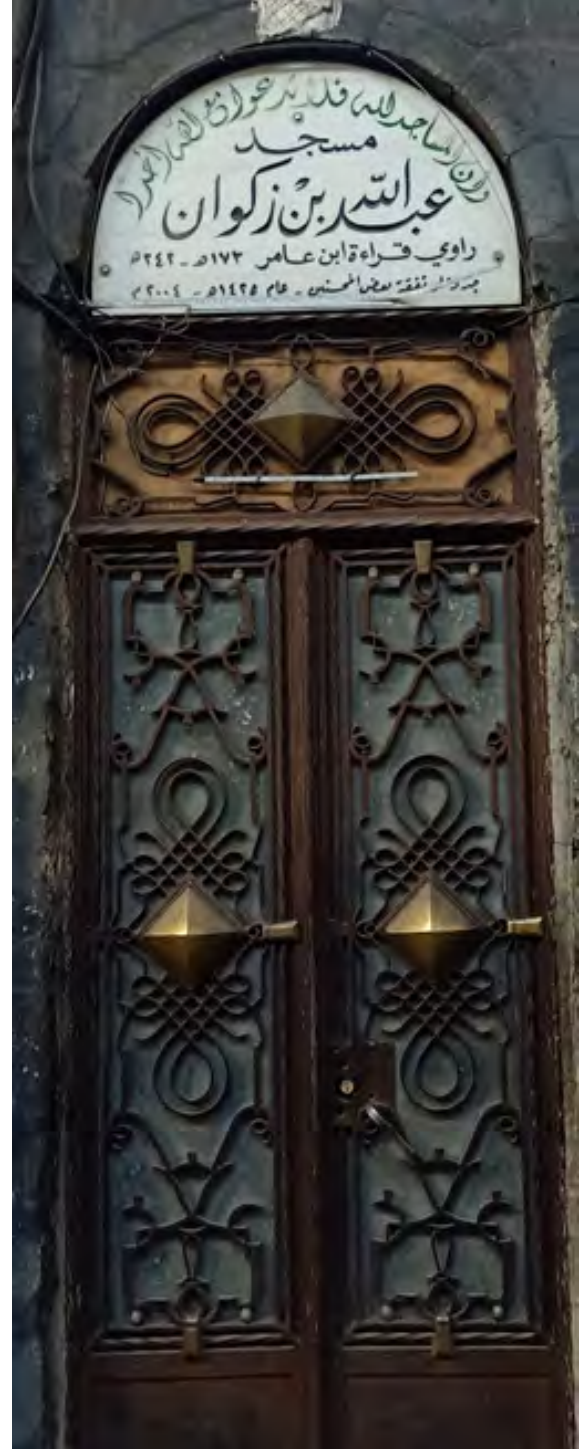
الشام، وله تأثير كبير في العلوم بدمشق، وخاصة القراءات والتفسير، فهو فقيههم وقاضيهم، وكانت له حلقة كبيرة لإقراء القرآن، فعن مسلم قال: «قال لي أبو الدرداء: اعدد من يُقْرَأُ عندنا - يعني في مجلسنا هذا- فأعددت ألفاً وستمائة ونيفاً، فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة، لكل عشرة منهم مقرئ، وكان أبو الدرداء قائماً يستفتونه في حروف القرآن - يعني المقرئين - فإذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحول إلى أبي الدرداء»، وكان ابن عامر مقرئ لعشرة في مجلس أبي الدرداء^(٢٦).

ثالثاً - تلاميذه:

لما اكتملت العلوم عند ابن عامر تصدر للتدريس، وبالرغم من شهرته قاضياً إلا أن الكتب لم تذكر إلا القليل من أسماء تلامذته، فقد قرأ على ابن عامر رحمه الله أئمة كبار من التابعين، فقد كان في مجلسه أربعمائة عريف يقومون عنه بالقراءة^(٢٧)، فقال أبو علي الأهوازي في كتابه الإيضاح أنهم بلغوا نحو ستة وأربعين إماماً في القراءة، منهم: سعيد بن عبد العزيز التنوخي^(٢٨)، وخالد بن يزيد، وأبو عمرو يحيى بن الحارث الذماري الغساني الدمشقي^(٢٩)، وحدث عنه محمد الوليد الزبيدي، وأخوه عبد الرحمن بن عامر^(٣٠)، وخلاد بن يزيد، ومسلم في التفقه في الدين، والترمذي وآخرون^(٣١). وممن أخذ القراءة عن ابن عامر، ورواها عنه: القاضي هشام بن عمار الدمشقي^(٣٢)، وعبد الله بن ذكوان^(٣٣)، يقول الإمام الشاطبي:

وأما دمشق الشام دار ابن عامر
هشام وعبد الله وهو انتسابه
فتلك بعبد الله طابت محللاً
لذكوان بالإسناد عنه تنقلاً^(٣٤).

(26)- أحسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص255.
(27)- النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج2/ص264.
(28)- سعيد بن عبد العزيز التنوخي الدمشقي: مقرئ محدث إمام، مات سنة 167هـ. تقريب التهذيب: العسقلاني (أحمد بن حجر) ترجمة رقم 2358، ص229.
(29)- يحيى بن الحارث: من الطبقة الثانية، تابعي جعله الذهبي من الطبقة الرابعة، وُلد سنة خمس وسبعين من الهجرة، ومات سنة خمس وأربعين ومائة. الطبقات الكبرى: ابن سعد، ج7/ص463. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: الذهبي، ترجمة رقم 46، ج1/ص239.
(30)- تاريخ مدينة دمشق: ابن عساکر، ج29/ص272.
(31)- غاية النهاية في طبقات القراء: الجزري، ترجمة رقم 1790، ج1/ص380.
(32)- هشام بن عمار بن نصير السلمي الدمشقي. تقريب التهذيب: العسقلاني (أحمد بن حجر)، ترجمة رقم 7303، ص641. معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ: محسنين (محمد سالم)، ج1/ص601.
(33)- عبد الله بن أحمد بن بشر بن ذكوان، شيخ الإقراء بالشام، وإمام جامع دمشق، توفي سنة 242هـ. تقريب التهذيب: العسقلاني (أحمد بن حجر)، ترجمة رقم 3203، ص306. معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ: محسنين (محمد سالم)، ج1/ص237.
(34)- المقصود بالإسناد أنهما لم يأخذا القراءة عن ابن عامر مباشرة، بل كان بينهما وبينه واسطة من القراء. حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع: الشاطبي (القاسم بن فيره)، البيتان (32-33)، ص3.



كلّ من مسجدي القارئ هشام بن عمار⁽³⁵⁾ والقارئ ابن ذكوان ما زال قائماً إلى اليوم في مدينة دمشق، حيث السوق المعروفة بسوق مدحت باشا التي تمتد بين باب الجابية وباب شرقي. تصوير الباحثة في ٥ أيار ٢٠٢٢ م.

(35)- اختلف المؤرخون في نسبة مسجد سيدي هشام، لكن الناس يصرون على أن المسجد للقارئ هشام بن عمار المدفون بداخله، كما أكد على ذلك المؤرخ أكرم العليبي في كتابه خطط دمشق. جامع هشام بن عمار: الأرمشي (عماد)، ص5.

رابعاً _ أعماله ووظائفه:

تقلد عملين علميين:

١- مشيخة الإقراء في دمشق:

كان ابن عامر إمام وخطيب الجامع الأموي، أهم مكان للتعليم في مدينة دمشق في العصر الأموي، حيث ينتظم الصحابة والتابعين في حلقات، ليستمعوا لقراءة القرآن الكريم، ومنه انطلقت قراءة الإمام عبد الله بن عامر التي تلقاها عن أبي الدرداء، فهو أحد القراء السبعة الذين أجمع العلماء على قراءتهم، وقد اتخذهم أهل الشام إماماً في قراءته، وكان مجلسه بين الجنانة والقنطرة، في الموضع المعروف بالروضة^(٣٦)، واستمرت تلك القراءة بدمشق ما يزيد على ستة قرون^(٣٧).

٢- القضاء:

تولى ابن عامر الإشراف (أي كان ناظراً) على عمارة الجامع الأموي حتى انتهى البناء^(٣٨)، وبعد وفاة القاضي أبي إدريس الخولاني وولاه الخليفة الوليد بن عبد الملك القضاء، فكان لا يرى أمراً خارج نطاق القرآن والسنة في مسجد دمشق إلا غيرَه، وأجمعت المصادر على حسن سيرته في القضاء، فكان عالماً فاضلاً صدوقاً، وأشادوا بتفوقه فيما تصدى له من علوم^(٣٩).



المكان الذي عُرف بالجنانة والقنطرة في الجامع الأموي مندثر، ولعله في الجهة الجنوبية لحرم الجامع، حيث المنبر والمحراب، وما يظهر بالصورة اليوم هو الجهة المقابلة له التي تقع في الجهة الشمالية لحرم الجامع، والتي يمكن أن يكون موقع الجنانة على هيئتها المعمارية، على اعتبار وجود قناطر سقف الحرم التي تحيط بها من الشرق والغرب. تصوير الباحثة في ٤ حزيران ٢٠٢٢ م.

(36)- تاريخ مدينة دمشق: ابن عساکر، ج29/ص280.

(37)- دور القرآن الكريم في دمشق: الحافظ (محمد مطيع)، ص4-5.

(38)- غاية النهاية في طبقات القراء: الجزري، ترجمة رقم1790، ج1/ص381. الإمام ابن عامر الشامي وروايه هشام وابن ذكوان: البغدادي (أحمد)، تمهيد.

(39)- الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام: ابن طولون، ص5.

خامساً _ وفاته:



صورة لتربة الشيخ أرسلان في دمشق بالقرب من باب شرقي، يبدو فيها من اليمين قبر أبي عامر المؤدب، يليه قبر الشيخ أرسلان الدمشقي، يليه قبر الشيخ أحمد الحارون.
تصوير الباحثة ٤ حزيران ٢٠٢٢م.

اتفقت المصادر على وفاته في دمشق، ويذكر ابن طولون أنه دفن في المكان الذي دُفن عنده الشيخ أرسلان خارج باب توما^(٤٠)، وهو القول المشهور، وعند تحقق الباحثة من ذلك تبين أن القبر الموجود بجانب قبر الشيخ أرسلان هو لمؤدب الشيخ الملقب بأبا عامر، وإذا كان الشيخ أرسلان توفي في عام ٥٤٠هـ فمن المؤكد أن أستاذه عاصره، وهذا يعني استحالة أن يكون القبر لابن عامر الدمشقي، بسبب الفرق الزمني بين الشخصيتين، إضافة لدليل آخر هو أن اسم المؤدب هو أبو عامر وليس ابن عامر، والدليل

الثالث أنه مشهور بعمله كمؤدب ومدرس للشيخ أرسلان، وليس إماماً للقراءة أو قاضياً، وقد أكد ذلك القاضي محمود العدوي، في كتابه الزيارات، أن قبر أبي عامر المؤقت، الذي صحبه الشيخ أرسلان، هو الموجود في هذه التربة^(٤١).

وعلى هذا فإن وجود قبر ابن عامر في تربة الشيخ أرسلان غير دقيق، ولا يمكن قبوله، بينما ذكر البعض أن قبر ابن عامر في مقبرة الدحداح بدمشق بجانب قبر أبي الدحداح^(٤٢)، وعندما تقصت الباحثة مكان القبر تبين أنه قبر قديم موجود اليوم بجانب قبر الصحابي محمد الدحداح^(٤٣)، وبدليل ما كتب على شاهدة القبر فإن هذه الرواية هي المرجحة.

(40)- الثغر البسام في ذكر من وُلِّي قضاء الشام: ابن طولون، ص6.

(41)- الزيارات بدمشق: العدوي (محمود)، ص49.

(42)- القراءات وكبار القراء في دمشق: الحافظ (محمد مطيع)، ص53، هامش 2.

(43)- الصحابي محمد الدحداح: هناك خطأ في هذا الاسم، لأن اسم الصحابي أبي الدحداح هو ثابت بن نعيم، وما يؤكد الخطأ أن هذا الصحابي استشهد في موقعة أحد سنة 6هـ، ولعل القبر هو لأحمد بن محمد بن إسماعيل بن أبي الدحداح التميمي الدمشقي، الذي توفي سنة 328هـ، وكان محدث الشام، وصاحب المرج الواقع بين العقيبة والعمارة البرانية، ومع الأيام اندمج مرج أبي الدحداح مع مقبرة الفراديس وأصبح جزءاً منها. تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر، ج5/ص218-219-220. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر (يوسف)، ترجمة رقم 2939، ج4/ص1645. خطط دمشق: المنجد (صلاح الدين)، ص118-140.



تقع تربة الدحاح في مدينة دمشق، بمنطقة شارع بغداد اليوم، ويبدو في الصورة ثلاثة قبور في مكان أُطلق عليه روضة مقام الصحابي محمد الدحاح، وهو في الجهة الشمالية الغربية من المقبرة، حيث يقع قبره على يمين الصورة. وفي الوسط قبر الإمام التابعي عبد الله بن عامر، أحد أصحاب القراءات السبع سنة ١١٨هـ، والقبر الثالث هو للشيخ محمد عيد يعقوب الحسيني. تصوير الباحثة في ٦ حزيران ٢٠٢٢م.

المحور الثالث _ منهج ابن عامر في القراءة:

أولاً _ علاقة القراء السبعة بالأحرف السبعة (٤٤):

اهتم المسلمون بالقرآن منذ نزوله لأنه مصدر التشريع، ويسر الله تعالى ذلك بجعل القرآن العظيم يُقرأ على أحرف متعددة سهلةً وتيسيراً، أما القراءات السبع أو العشر التي تُنسب للقراء فهي ليست الأحرف السبعة التي توسّع الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة، وهو الذي جُمع عليه المصحف العثماني، وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعُلم وجهة من القراءات، فالتزامها طريقةً، ورواها وأقرأ بها واشتهر بها، ونُسبت إليه مثل قراءة نافع أو حرف نافع، وقراءة ابن عامر أو حرف ابن عامر، فالقراءات السبع هي ما بقي من الأحرف السبعة، التي نزل بها القرآن الكريم، مما يوافق رسم المصحف^(٤٥).

(44)- اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة اختلافاً كثيراً، فقد ذكر فيه السيوطي نحوًا من أربعين قولاً. الإتيان في علوم القرآن: السيوطي (جلال الدين)، ج1/ص131-141.

(45)- الإبانة عن معاني القراءات: القيسي (مكي)، ص63. المنهل المفيد في أصول القراءات والتجويد: روضة الحصري، ص35.

ثانياً _ صفات القراء السبعة (٤٦):

الاختلاف^(٤٧) بين القراءات السبع هو من باب تنوع طرق الأداء، وليس اختلاف تضاد أو تحريف أو تغيير للمقاصد الأساسية للنص، فهو اختلاف تنوع في الأداء، وفيه بعض الفائدة من تنوع الأساليب والأمثلة، وتقريب الحقائق وتسهيل العلوم، واختلاف القراء هو في الأصول أو في الحروف، فلما مات النبي ﷺ خرج الصحابة إلى البلدان المفتوحة ليعلموا الناس القرآن والدين، فعلم كل واحد منهم أهل بلده على ما كان يقرأ على عهد النبي ﷺ، فقد قرؤوا كما علموا وإن خالف بعضهم قراءة بعض، فاختلفت قراءة البلدان على نحو اختلاف قراءة الصحابي الذي علمهم^(٤٨).

فلما كتب عثمان بن عفان المصاحف، وأرسلها إلى الأمصار، قرأ أهل كل بلد مصحفهم الذي وجه إليهم على ما كانوا يقرؤون قبل وصول المصحف إليهم، مما يوافق خط المصحف الذي وجه إليهم، فاختلفت قراءة البلدان لذلك بما لا يخالف الرسم العثماني، وسقط من قراءتهم كلهم ما يخالف هذا الرسم، حتى وصل النقل إلى هؤلاء السبعة^(٤٩).

وسبب الاقتصار على السبعة أن الرواة عن الأئمة كانوا قد كثروا عدداً واختلفوا في القراءة في القرن الثاني والثالث الهجريين، فأراد العلماء^(٥٠) في القرن الرابع أن يقتصروا على القراءات التي توافق رسم المصحف العثماني، لسهولة الحفظ وضبط القراءة، فاخاروا إماماً مشهوراً بالثقة، والأمانة في النقل وحسن الدين، وكمال العلم، على أن يكون قد طال عمره واشتهر أمره، وأجمع أهل بلده على عدالته فيما نقل، وثقته فيما قرأ وروى، وعلمه بما يقرأ، فلم تخرج قراءته عن خط المصحف العثماني، فأفردوا من كل بلد وجه إليه الخليفة عثمان بن عفان مصحفاً إماماً في القراءة.

وقد حقق عبد الله بن عامر الدمشقي هذه الصفات، فكان أقدم القراء في دمشق، وهو إمام أهلها في دهره، «اشتهر بعدالته، وفاقت معرفته غيره، وتقدم أهل زمانه بالدين والأمانة والمعرفة والصيانة، واختاره أهل عصره في هذا الشأن، وأجمعوا على قراءته، فقصد من سائر الأقطار، وطالت ممارسته للقراءة والإقراء، كما خص في ذلك بطول البقاء»^(٥١).

(46)- القراء السبعة هم: عبد الله بن كثير الداري المكي، وعبد الله بن عامر اليحصبي الشامي، وعاصم بن أبي النجود الأسدي الكوفي، وأبو عمرو بن العلاء البصري، وحمزة بن حبيب الزيات الكوفي، ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي الكوفي. غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري الدمشقي (محمد)، ج 1-2.

(47)- أوجه الاختلاف في لغات العرب هي: إبدال لفظ بلفظ، وإبدال حرف بحرف، وتقديم وتأخير، وزيادة حرف ونقصانه، واختلاف حركات البناء والإعراب، وإشباع الصوت بالتفخيم والإظهار أو الإقصار والإدغام. أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص 131-133. (-) الإبانة عن معاني القراءات: القيسي (مكي)، ص 44.

(48)- الإبانة عن معاني القراءات: القيسي (مكي)، ص 47.

(49)- الإبانة عن معاني القراءات: القيسي (مكي)، ص 42-49.

(50)- أول من اختار هؤلاء السبعة هو أبو بكر بن مجاهد بعد أن انتهت إليه الرئاسة في علم القراءة في القرن الرابع الهجري. أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص 83.

(51)- أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص 83.

ثالثاً _ صفة قراءة ابن عامر:

القراءة سنة مُتَّبَعَةٌ لحديث النبي ﷺ «اقرأوا كما علّمتم»، لذلك أكد القراء على ضرورة الأخذ عن المشايخ وأتباع السلف في القراءة، وقد تلقّاها التابعون عن الصحابة^(٥٢).

لم يصف كيف تلقى ابن عامر القرآن سوى ابن الجزري، فقال: «أخذ القراءة عرضاً عن أبي الدرداء وعن المغيرة»^(٥٣)، وهذا دليل على أن ابن عامر كان يحفظ كتاب الله قبل عرضه على شيوخه أبي الدرداء والمغيرة.

وقد وضع العلماء قواعدَ وشروطاً للقراءة حتى تُسمّى صحيحة، وهي: موافقتها خط المصحف العثماني على إحدى نسخه المرسلّة إلى البلدان، ومنها نسخة مرسوم خط المصحف الشامي، والشرط الثاني تواتر ما رواه جماعة عن جماعة، وقد ثبت هذا التواتر في الهيئة كالمدة والإمالة والتخفيف، أما الشرط الثالث فهو موافقة العربية مطلقاً ولو بوجه من الإعراب.

لذلك عدت قراءة ابن عامر قراءة صحيحة، لأنها وافقت هذه الشروط، فابن عامر لم يخرج في قراءته عن الرسم العثماني، والثاني أنه وافق أحد قواعد اللغة العربية، وإن كانت هذه القاعدة اللغوية غير منتشرة أو غير معروفة لدى العامة من الناس، فليس بالضرورة أن تكون كل قواعد اللغة العربية معلومة للجميع، يكفي أن تكون معتمدة وصحيحة لأئمة علوم اللغة والمتخصّصين، خصوصاً أن أئمة القراء عملوا في حروف القرآن على قاعدة الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية، فلم يتبعوا قاعدة الأفضى باللغة والأقيس في العربية^(٥٤).

أما عن التواتر فابن عامر يُعدّ أعلى القراء السبعة سنداً على الإطلاق، لأنه يروي القراءة من طريقتين:

١- عن المغيرة بن أبي شهاب عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

٢- عن أشياخه من الصحابة كأبي الدرداء ووائله ومعاوية وفضالة عن النبي ﷺ، فكان ابن عامر يمسك المصحف على فضالة في جامع دمشق عند المحراب العتيق الذي يُسمّى العامة محراب بني أمية، وفضالة يقرأ ظاهراً، فكانت قراءة فضالة التي كان يقرأها على رسول الله ﷺ هي التي يسمعها ابن عامر من فيه، فبينه وبين النبي ﷺ رجل واحد فقط، وهذا الموضوع هو محل اتفاق بين علماء القراءة لا يخالف فيه أحد^(٥٥).

إذن وفق هذه الشروط تُعدّ قراءة ابن عامر متواترة، وهي قراءة أثر لا رأي فيها، وُصفت بذلك

(52)- أنواع تلقي القرآن الكريم: العرض وهو القراءة على الشيخ، وهو لا يكون إلا لمن أتم حفظ القرآن، السماع: أن يقرأ الشيخ ويستمع المتعلم، رواية الحروف عن المقرئ دون القراءة عليه لكنه قليل جداً بين المقرئين. أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص 98-101.

(53)- غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري الدمشقي (محمد)، ترجمة رقم 1790، ص 380. معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ: محسن (محمد سالم)، ج 1/ص 368.

(54)- أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص 107.

(55)- جمال القراء وكمال الإقراء: السخاوي (علي بن محمد)، 494/2، هامش 2. أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص 68. تاريخ دمشق: ابن عساکر، ج 29/ص 276.



لأن ابن عامر لا يختار لفضة في قراءته إلا قرنهما بالفقه بأثر، والسبب أن ابن عامر كان يجمع بين علم الإقراء (القراءة) وعلم الحديث، لذلك ذكر هشام بن عمار: «ابن عامر لا يختار حرفاً إلا بأثر عن رسول الله ﷺ، فكان يقرأ ويقول: «هذه قراءة أهل الشام تلقوها عن الصحابة وغيرهم عن رسول الله ﷺ»، فقراءته ترجع إلى النقل لا إلى الرأي، فهي مروية عن الأئمة^(٥٦)، فقد تلقى وتلقن وسمع ورأى^(٥٧).

كان ابن عامر يأخذ عن أصحابه بالتحقيق (أي المد والعدل والقصر والهمز المقوم والتشديد المجرد بلا تمطيط ولا تشديق ولا تعلية صوت ولا ترعيد)، والترتيل والتمكين تارة، وتارة يأخذ عليهم بين التشديد والتسهيل والحد (أي السهل الكافي في أدنى ترتيل وأيسر تقطيع) مع مراعاة الترتيل، فكان مذهبه في القراءة بين الحد والتحقق^(٥٨).

(56)- أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص254.

(57)- النشر في القراءات العشر: ابن الجزري (محمد الدمشقي)، 263/2.

(58)- أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص147-149.



الخاتمة:

الثراء الفكري والعلمي هو ما ميّز العصر الأمويّ بشكل عام والقرن الأوّل الهجري بشكل خاص، حيث انتشر التدوين، وبدأت ترجمة العلوم من الحضارات السابقة، وساهمت المكانة العلمية لمدينة دمشق في العصور التاريخية القديمة في الاهتمام بالعلوم كافة ومنها علم القراءات، وهذا يدل على تميّز هذه المدينة بالروح العلمية المبدعة التي تأخذ وتعطي.

زاد في ذلك الصحابة الذين نزلوا في دمشق، وتركوا أثرهم الفكري في تلاميذهم وفي العلوم، من حيث الرواية والتفسير والقراءات، فأثمر ذلك وجود حركة علمية نشطة، ظهرت نتائجه في جيل كبار التابعين، ومنهم الإمام الثقة الحافظ لكتاب الله ابن عامر الدمشقي، الذي امتاز عمله في دقة النقل وأمانة العزو، وقد توافقت قراءته مع اللغة العربية الفصحى وقواعدها، كما توافقت مع الرسم العثماني، وأُتصل سندها بالنبي ﷺ، فحققت شروط القراءة الصحيحة التي اشترطها العلماء، وجعله مصنّفو الطبقات في الطبقة الثانية، ووصفه المترجمون بنحو قولهم: «كان عبد الله بن عامر إماماً عالماً ثقة فيما أتاه، حافظاً لما رواه، متقناً لما وعاه، عارفاً فاهماً قيماً فيما جاء به، صادقاً فيما نقله من أفاضل المسلمين، وخيار التابعين، وأجلّة الراوين، لا يُتّهم في دينه، ولا يُشكُّ في يقينه، ولا يُرتاب في أمانته، ولا يُطعن عليه في روايته، صحيحاً نقله، فصيحاً قوله، عالياً قدره، مصيباً في أمره، مشهوراً في علمه، مرجوعاً إلى فهمه، لم يتعدّ فيما ذهب إليه الأثر، ولم يقل قولاً يخالف فيه الخبر»⁽⁵⁹⁾.

وقد اجتمع أهل الشام على قراءته، وأُطلق عليه لقب الإمام⁽⁶⁰⁾، واستمر أهل الشام على قراءة ابن عامر ما يقرب من خمسة قرون، فابن عامر أحد الشخصيات العلمية التي نشرت أسس علم القراءات، الذي يعدّ من العلوم المهمة التي ترتبط مباشرة بالنص القرآني وأدائه.

(59)- غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري الدمشقي (محمد)، ج1/ص381.

(60)- أحسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار: ابن وهبان، ص255.

مصادر البحث ومراجعته

١. الإبانة عن معاني القراءات: القيسي (مكي)، حققه: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة، د.ت.
٢. الإبتقان في علوم القرآن: السيوطي (جلال الدين)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١، المملكة العربية السعودية، د.ت.
٣. أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار أئمة الخمسة الأمصار، الذين انتشرت قراءاتهم في سائر الأقطار: ابن وهبان المزي (عبد الوهاب)، تحقيق: أحمد بن فارس السلوم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.
٤. الأعلام: الزركلي (خير الدين)، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت، ط ١٧، ٢٠٠٧م.
٥. الإمام ابن عامر الشامي وراويه هشام وابن ذكوان: القيسي البغدادي (أحمد زكي أحمد)، سلسلة القراء السبعة (٥)، سورية، ط ١، ٢٠١٠م.
٦. الأنساب: السمعاني (عبد الكريم)، ج ٥، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م.
٧. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: الذهبي (شمس الدين محمد)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ج ٤، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م.
٨. تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر (علي بن الحسن)، تحقيق: علي شيري، ج ٢٩-٥، دمشق، ١٩٩٥م.
٩. تاريخ الدولة الأموية: طقوش (محمد سهيل)، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٦م.
١٠. التعليم في الشام في العصر الأموي: الوافي (سمية)، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ.
١١. تقريب التهذيب: العسقلاني (أحمد بن حجر)، قدم له: محمد إبراهيم شقرة، الأردن، ٢٠٠٠م.
١٢. تهذيب التهذيب: العسقلاني (أحمد بن حجر)، ج ٣، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.
١٣. الثغر البسام في ذكر من وُلِّي قضاء الشام: ابن طولون (شمس الدين)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، ١٩٥٦م.
١٤. جامع هشام بن عمار: الأرمشي (عماد)، أبحاث مساجد دمشق دراسة تاريخية مفصلة في منتدى ياسمين الشام، ٢٠٠٨م.
١٥. جمال القراء وكمال الإقراء: السخاوي (علي بن محمد)، دراسة وتحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي، بيروت، ط ١، د.ت.



- ١٦ . حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع: الشاطبي (القاسم بن فيره)، متن الشاطبية ضبه وصححه وراجعته: محمد تميم الزعبي، دمشق، ط٤، ٢٠٠٥م.
- ١٧ . خطط دمشق: المنجد (صلاح الدين)، نصوص ودراسات في تاريخ دمشق الطبوغرافيا وأثارها القديمة، نشرت تباعاً في مجلة المشرق عام ١٩٤٨م، بيروت، ١٩٤٩م.
- ١٨ . دور القرآن الكريم في دمشق: الحافظ (محمد مطيع)، دمشق، ط١، ٢٠١٠م.
- ١٩ . دور القرآن الكريم في دمشق: النعمي (عبد القادر)، صححه وعلق عليه وذيله: صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٤٦م.
- ٢٠ . الدولة الأموية: العث (يوسف)، دمشق، ط٢، ١٩٨٥م.
- ٢١ . الزيارات بدمشق: العدوي (محمود)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥٦م.
- ٢٢ . الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر (يوسف)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ج٤، بيروت، د.ت.
- ٢٣ . شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد (عبد الحي)، ج١، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
- ٢٤ . الطبقات الكبرى: ابن سعد، بيروت دار صادر، د.ت.
- ٢٥ . غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري الدمشقي (محمد)، طبعة جديدة مصححة اعتمدت على الطبعة الأولى للكتاب التي عني بنشرها سنة ١٩٣٢م (ج. برجستراسر)، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.
- ٢٦ . القراءات وكبار القراء في دمشق من القرن الأول الهجري حتى الوقت الحاضر: الحافظ (محمد مطيع)، تقديم: شيخ القراء في الشام محمد كريم راجح، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م.
- ٢٧ . معجم البلدان: الحموي (ياقوت)، ج٣، بيروت، د.ت.
- ٢٨ . معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ: محسين (محمد سالم)، ج١-٢، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
- ٢٩ . معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: الذهبي (محمد)، تحقيق: طيار آلتى قولاج، إستانبول، ١٩٩٥م.
- ٣٠ . المنهل المفيد في أصول القراءات والتجويد: الحصري (روضة)، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.
- ٣١ . النشر في القراءات العشر: ابن الجزري (محمد الدمشقي)، راجعه: محمد علي الضباع، ج٢، بيروت، د.ت.